المحاضرة الحادية عشر:

الفنون النثرية: الرواية.

تمهيد.

1. تعريف الرواية.

2. أنواع الرواية العربية الحديثة.

أ. الرواية التاريخية.

ب. الرواية الاجتماعية.

المحاضرة الحادية عشر:

الفنون النثرية: الرواية.

تمهيد: إنّ المتأمل في تاريخ نشأة الرواية العربية في العصر الحديث، يقف على ذلك التشابك والتعالق بينها وبين القصة العربية التي سلف الحديث عنها فيما سبق، حتّى أنّنا يمكن أن نقول، إنّ المراحل التي مرت بها القصّة في ميلادها ونموها وتطورها هي نفسها مراحل الرواية العربية الحديثة.

لقد احتّل فن الرواية موقفا متميّزا في ساحة الأدب العربي الحديث، إذ استطاع وفي مدّة زمنية قصيرة أن يوسّع دائرة مقروئيته إلى حدّ أصبح ينافس فنّ الشعر الذي كان طوال تاريخ الأدب العربي هرما عاليا لا يرقى إلى مستواه أيّ فنّ من الفنون الأخرى، والدّليل على ذلك الشهرة الواسعة التّي حظي بها الروائيون العرب بين متذوقي الأدب من المتلقّين في العالم العربي وبقية العوالم، فاتساع دائرة القراءة في جنس الرواية، تأكيد على سمو هذا الفن ومتعته الجمالية.

1. تعريف الرواية: ما يجب الإشارة ‘ليه أنّ مصطلح الرواية إذا تجاوزنا معناه اللّغوي إلى المعنى الاصطلاحي، فإنّه من المصطلحات الجدلية التي كثر الخلاف أو الالتباس في تحديد دلالتها عند النّاقدين، وهذا كما قلت لارتباط وتداخل فن الرواية بفن القص، ففي إحدى التعاريف نقرأ ما يلي: "هي تجربة أدبية يعبّر عنها بأسلوب النثر سردا وحوارا من خلال تصوير حياة مجموعة أفراد أو شخصيات يتحركون في إطار نسق اجتماعي محدّد الزمان والمكان، ولها امتداد كمّي ومعيّن يحدّد كونها رواية"[1]، إذن من خلال هذا التعريف الموجز والمختصر والملمّ فإنّ الرواية هي إبداع نثري يمنح للكاتب قدرة فائقة على التغلغل في أعماق النّفس الإنسانية لأنّها اللّغة الموظفة هي لغة العقل وبالتالي يأتي مجالها أوسع وأكثر وعيا من أي جنس أدبي آخر، وفي تعريف آخر للرواية نقرأ: "الرواية هي الجنس الأدبي

---

(1) طه وادي: الرواية السياسية، دار النشر للجامعات، مصر، 1994، ص54.

الأقدر على التقاط الأنغام المتباعدة المتنافرة المركبة المتغايرة الخواص لإتباع عصرنا ورصد التحولات المتسارعة في الواقع الراهن"[1].

في هذا التعريف نقرأ الإشارة إلى قدرة الجنس الروائي التعبير عن الصياغات الحضارية المعاصرة، التي نعيشها ونتعايش معها على مستوى الفرد أو المجتمع، وبالتالي لا نص يحتوي نزق الإنسان وتقلباته الفكرية والأخلاقية إلى النص الروائي وهذا قول أحد الروائيين العرب فيما معناه حينما أحب شخصا أكتب قصيدة وحينما أحب وطنا أكتب رواية.

إذن يمكن القول أن نشأة الرواية العربية هي نشأة حديثة، تعود إلى بداية تعود إلى بداية القرن العشرين أو قبله، إذا ما اجتهد الكاتب في تأصيل النشأة والميلاد، وقد كانت مصر رائدة في هذا الميدان حيث استطاعت أن تنبه إلى هذا الفن الجديد، ثم نبّهت إلى ضرورة خلق مثله في مصر والعالم العربي. وكان للمواضيع التي تناولتها يد فاعلة في ظهورها مرتبة ترتيبا تاريخيا، ولذلك سنحاول أن نتعرف على هذه الإشكالية من خلال الحديث عن قضايا الرواية العربية وأنواعها.

2. أنواع الرواية العربية الحديثة: تتحدّد أنواع الرواية بتحديد القضايا التي عالجتها وبالتالي فقد كانت كما يأتي:

أ. الرواية التاريخية: وهي التي تستوحي أحداثها وتستمد شخصياتها من التّاريخ وتقدم صورة تاريخية لفترة ما نابضة بطبيعة العصر وعاداته، وقد جاءت الأولى من حيث الترتيب التاريخي استجابة لظروف سياسية تمثلت في الاستعمار الغاشم الذي ناء بكلكله كامل الأوطان العربية، فاتجهت عواطف الكتّاب نحو التاريخ العربي القديم تستوحي منه بعض المواقف القومية العظيمة لتستخلص منها العبر وتشحذ بعد ذلك هِمم الأحرار الذين لهم الرغبة في التخلص من همجية الاستعمار وامتطاء صهوة الثورة التي تولد من رحم الحزان، ومن اوائل الكتّاب في هذا الميدان نجد سليم البستاني الذي ألّف عددا من الروايات التاريخية من أهمها "زنوبيا" 1871 و"بدور" 1872 و"الهيام في فتوح الشام 1874"، ثم تبعته محاولات جورجي زيدان(*)، الذي يعدّ رائدا في تأسيس الرواية التاريخية، إذ ألّف اثنين وعشرين رواية

[1] رشاد الشامي حسان: الم أرة في الرواية الفلسطينية (1945-1985)، إتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998، ص15.

(*) جورجي زيدان، كاتب لبناني ولد سنة 1861، أديب وروائي ومؤرخ وصحفي أجاد فضلا عن اللغة العربية، اللغة العبرية والسريانية والفرنسية والإنجليزية، أصدر مجلة الهلال عام 1892، نشر فيها كتبه منها: "تاريخ التمدن الإسلامي" و"تاريخ آداب اللغة العربية" و"تراجم مشاهير الشرق"، من المفكرين الأوائل الذين صاغوا نظرية القومية العربية، توفي عام 1914.

تاريخية ذات أبعاد اجتماعية وانسانية وعاطفية ضمن سلسلة تاريخ الإسلام من فترة ما قبل الإسلام مرورا بالعصور المتقدمة إلى العصور الإسلامية المتأخرة، ومن هذه الروايات نذكر على سبيل المثال لا الحصر: فتاة غسّان، أرمانوسة المصرية، عذراء قريش و17 رمضان، غادة كربلاء، الحجاج بن يوسف، فتح الأندلس، العبّاسة أخت الرّشيد، الأمين والمأمون.

وقد انبنت هذه الروايات على عقدتين أساسيتين: عقدة تاريخية تتخذ من خلالها التاريخ كمصدر أساسي لبنء الرواية، إذ لا نجد في رواياته أحداث غير تاريخية بغض النظر عن موضوعيتها أو ذاتيتها وعقدة غرامية تعكس تجربة الحب والعشق بين الشخصيات الموجودة تاريخيا، وبين هذين العقدتين نقرأ صراعا سياسيا ودينيا ومذهبيا إلى جانب صراع رومانسي، وهذا ما يعني أنّ روايات جورجي زيدان يتقاطع فيها الجانب التاريخي مع الجانب الإنساني، الذي لا ينظر إليه إلا على أنّه أحداث سياسية بل على أنّه حضارة وعادات وتقاليد وأخلاق وآداب وهو بهذا الفكر يسير على خطى الغربيين في تواريخهم حينما يركزّون على كل مظاهر المجتمع.

غير أن كتابات جورجي زيدان، قد لاقت انتقادا كبيرا من طرف الدّارسين والنّقاد لم لاحظوه عن كتاباته من نوايا سيئة، يدّس من خلالها السمّ في العسل حينما يريد الكتابة عن التاريخ الإسلامي كقول شوقي أبو خليل: "إنّ كتابا يحمل عنوانا روايات تاريخ الإسلام وفتح الأندلس طارق بن زياد صفحاته ثلاثمئة وستة وسبعون ليس فيه من طارق والفتح إلّا ما يقل عن خمسين صفحة وما بقي من صفحات رواية غرامية لعب فيها الخيال دورا بارزا

فلماذا نضع لمثل هذه الكتب العناوين الإسلامية أليست لتمييع تاريخنا واللّهو به وطمس دور أبطاله... ولعدم إظهار الفكر الذي قاد فتوحاتنا بروعته وجلاله وعظيم تأثيره وقدرته على كلّ شيء، ليس الباطل إلّا كطلاء يزول من الزمن"[1].

وقد وجدنا جورجي زيدان يوظف العنصر القصصي لخدمة الحقائق التاريخية على خلاف الكاتبين الغربيين اللذين تأثرا بهما وهما "والتر سكوت" و"الإسكندر دوماس" اللذان يجعلان من التاريخ أداة للفن القصصي، إذ يريان أن التّاريخ ما هو إلّا مادة تُستغل وتُوظف لخدمة الفن القصصي ومثال روايته "العباسة أخت الرّشيد" يصوّر فيها نكبة البرامكة وأسبابها في عهد هارون الرّشيد، وزواج جعفر البرمكي من العبّاسة وما جرّ عليها من ويلات

[1] شوقي أبو خليل: جورجي زيدان في الميزان، دار الفكر دمشق، ساحة الحجاز، سوريا، الطبعة الأولى والثانية، 1981، ص125.

ومصائب أودت بحياتهما وأولادهما، كما نبيّن الصراع الحزبي بين بني هاشم والموالي والعلويين وميل الرّشيد إلى مناصرة الفئة الأولى، ودفاع وزيره البرمكي على الفئتين الباقيتين، وتصف الرواية مجالس الخلفاء العباسيين ولباسهم ومواكبهم وحضارتهم كما تؤثر على الصراع السياسي حول السلطة بين الأمين والمأمون وجعفر بن الهادي والوزارة وصراع زبيدة

زوجة الرّشيد مع العبّاسة أخته، حول مكانتهما لدى أمير المؤمنين وتنتهي الرواية بنهاية مأسوية تتمثل في التخلص من الوزير البرمكي والعبّاسة وولديها الحسن والحسين بلا رحمة. وهكذا يختلط التاريخ بالفن القصصي، وقد تذهب الحقيقة الموضوعية أمام الذاتية

خاصة إذا كان الروائي يُبيّت لفكرة سيئة يقول يوسف نجم: "وقد يلجأ الكاتب إلى خديعة القارئ فيربط أجزاء قصّته سرّ يحتفظ به طوال القصة ولا يحاول أن يكشفه في نهايتها، وهذا ما فعله زيدان في عذراء قريش وهي لعمري طريقة رخيصة وخدعة غير مستحبة وأسلوب مهلهل مفضوح في التشويق والمماطلة ولكن زيدان كان يعدّهما براعة فنية، وقد لجأ إليها كثيرا في قصصه"[(1)].

ورغم حضور عنصر التاريخ في روايات جورجي زيدان، فإنّه لا يمكن عدّ هذه الرويات التاريخية تراجم لشخصيات إسلامية، لأنّ المفهوم المتفق عليه للتراجم يكرّس عملية السّرد الموثق لحياة علم من الأعلام من الميلاد إلى الوفاة وما في حياته من مواقف وسلوكات، بعيدا عن الخيال الذي يتدخل في سرد الذات وهذا ما لا ينطبق على مفهوم العمل الروائي حيث يشكل الخيال مكوّنا أساسيا من مكوّناته[(2)].

إن عمل جورجي زيدان التأريخ بالرواية يطرح إشكالية طالما شغلت المهتمين في هذا الحقل الأدبي، والمتمثلة في العلاقة بين التاريخ والرواية أو بمعنى آخر هل يمكن أن نؤرخ بالرواية؟ لتصبح الرواية عبارة عن وثيقة تاريخية يستعين بها الباحث في التاريخ.

الحقيقة أن لا هذا ولا ذاك، إنّ الرواية كعمل إبداعي وظيفتها تشويه التاريخ تشويها فنيّا، أي لا تؤرخ، بل تتغلغل في عمق الحقيقة التاريخية وتحقنها بالمتخيل الذي قد يكون المسكوت عنه أحيانا، أو لم تتحدث عن كتب التاريخ لاعتقادها أنّه لا يقدّم فائدة، فيأتي الروائي بطاقته الإيحائية ويصبها في المتن التاريخي، وهكذا تخرج الرواية التاريخية ممزوجة

---

(1) محمد يوسف نجم: فن القصة، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1955، ص42.

(2) ينظر، عبد الرحمان العشماوي: وقفة مع جورجي زيدان، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، الرياض، السعودية، 1993، ص14.

بين الواقع والمتخيل الجميل وربّما هذا ما لم نجده في روايات جورجي زيدان، فإنّه "يتّضح من مراجع جورجي أنّه لم يطلع مطلقا على منهج البحث التاريخي، ويتجلى ذلك في اعتماده على كتب شك المؤرخون بصحّتها، بل وعرفوا كذبها ومجونها مثل الأغاني(*) الذي جعله مرجعا رئيسيا في معظم رواياته"(1).

وخلاصة هذه النقطة أن روايات جورجي زيدان قد كرّست الفن لخدمة التاريخ لذلك أصبح التاريخ أداة للتسلية والترفيه ممّا أبعد القصة عن جانب الإفادة أو الثقافة، ليربط ذلك بالتاريخ على حساب الفن، بينما الرواية هي فن يحوّي كلّ الخطابات والأجناس واللّغات وتخاطب العقل والوجدان معا.

وهذا ما أخذ به المؤلف آخر من الروائيين العرب، جاء بعد جورجي زيدان وهو الروائي المصري محمد فريد أبو حديد(**) الذي ألّف عددا من الروايات التاريخية استقى موضوعاتها من التاريخ العربي مثل روايته "الوعاء المرمري" و"زنوبيا ملكة تدمر" و"أبو الفوارس عنترة" والجديد في رواياته التي تجاوز بها جورجي زيدان أنّه التزم بالأحداث التاريخية كما وقعت بل حاول استثمارها لخدمة غرضه القصصي وغايته الاجتماعية والقومية، مع العلم أنّه جاء في مرحلة اتّسمت بنمو الوعي الوطني، وبروز روح القومية العربية، فكان المناخ مناسبا لـ محمد أبو حديد وأمثاله من الكتّاب الوطنيين الذين حملوا على عاتقهم مهمة بث الوعي القومي وسط الجماعير والتحضير للثورة على الاستعمار البغيض، مستعملين آلية الكتابة الروائية التاريخية، من خلال الاعتزاز بتراثنا وهويتنا العربية الإسلامية وتاريخنا المنير لا نستحي به أمام الأمم والشعوب.

وهكذا سارت الرواية التاريخية بخطى وئيدة واثقة، تتطور شيئا فشيئا إلى أن جاء كتاب آخرون وأكملوا المسيرة بشيء من الإضافة الإيجابية.

ب. الرواية الاجتماعية: لقد شكّلت الأعمال الروائية السالفة الذكر تراكما معرفيا وابداعيا استفاد منه أدباء آخرون جاؤوا بعدهم، فأبدعوا وأضافوا ما أضافوا إلى هرم الرواية العربية

(*) الأغاني كتاب لأبي الفرج الأصفهاني، قضي في تأليفه خمسين سنة، وهو يتبع عورات الخلفاء والوزراء وذوي المكانة ويكشف أسرارهم.

(1) شوقي أبو خليل: جورجي زيدان في الميزان، ص314.

(**) محمد فريد أبو حديد، كاتب مصري ولد عام 1893، بدأ دراسته المضطربة إلى أن تخرج عام 1914، عمل مدرسا في مدرسة المعلمين العليا، حصل على شهادة الليسانس في الحقوق عام 1924، تولى عدّة مناصب منها سكرتير عام لجامعة فاروق الأول، اختير عضو بمجمع اللغة العربية، توفي عام 1967، ترك مؤلفات كثيرة منها صلاح الدين وعصره.

الذي الذي بدأ يتشكل شيئا فشيئا. فجاءت مرحلة الرواية الاجتماعية، وكان محمد حسين هيكل(*) رائدا في هذا الاتجاه، إذ كتب رواية زينب التي مثلت المنعرج الحاسم في ميلاد الرواية العربية الفنية بخصوصياتها المحلية وقد كتبها عام 1912 وطبعت بعد هذا التاريخ بسنتين، مع الإشارة إلى أنّه سُبقت برواية "غابة الحق لـ فرنسيس فتح الله وقد اتّسمت بمهاجمتها للواقع ومعاداتها للفساد ممّا جعلها تحقّق مقروئية كبيرة.

رواية زينب بعنوانها الفرعي "مناظر وأخلاق ريفية" وربّما يعود سبب عدم تسميتها في البداية بزينب تفاديا للتأويلات التأويلات التي قد تضعه في خانة المغضوب عليهم لتجاوزه حدود الأخلاق لكون موضوعها يعالج قضية العلاقة بين الرجل والمرأة وتحكّم المجتمع في

هذه العلاقة، ممّا يؤدي إلى حدوث أزمة بكلّ تشعباتها بالنسبة لشخوص الرواية، إنّ الحبّ بين بطل الرواية وزينب هو من الطابوهات التي لا يجب الحديث عنها، رغم شرعيته ورغم وجوده في المجتمعات منذ أن خلق الله الإنسان وأودع فيه هذه الغريزة.

لقد ألّف هيكل هذه الرواية من خلال إحساسه وشعوره بالواقع المصري وتعلّقه الشديد بمصر، وبكلّ ما يرتبط بها، كما تأثر بثقافة الغرب بالتحديد الثقافة الفنية وخاصة تأثره بفكر

"جان جاك روسو" وكذا تعلقه بالرومانسيين الغرب.

جاءت رواية زينب نقلة نوعية وهامة في مسار الرواية العربية لتوفر العناصر الفنية ولأنّ صدورها توافق مع حالة نهوض فكري تمثل مجموعة بارزة من المثقفين تهتم بالرواية والقصة كتابة وترجمة "كانت الرواية المصرية هي النموذج الأمثل الذي كان الكتّاب يقلّدونه ويسيرون في طريقه، ويعترف بعض الروائيين العراقيين منذ فترة مبّكرة بهذا التأثير، حين يقول أحد الروائيين وهو محمد أحمد السّيد في ذلك الوقت، إنّ مصر أم العلوم والمعارف، أم الكتب والتأليف، أم الطبع والنّشر"[1].

وبالرجوع إلى مضمون رواية زينب الذي يصوّر الريف المصري في عاداته وتقاليده وطبيعته، فالرواية مرآة عاكسة لقسوة التقاليد التي فرّقت بين حامد وزينب وأخير بين زينب

وابراهيم، إذ تكرّس بشدة عدم حرية الفرد في اختيار من يحب، يقول يحى حقي: "إن مكانة

(*) محمد حسين هيكل، ولد عام 1888 بالدهقلية بمصر، تعلم في قريته ثم في القاهرة، حصل على إجازة الحقوق عام 1919، رحل إلى فرنسا ليتحصل على دكتوراه في الاقتصاد السياسي عام 1912، اشتغل بالمحاماة والصحافة كما تولى وزارة المعارف ومجلس الشيوخ من 1945 إلى 1955 ثم تفرغ للكتابة، توفي عام 1956، من أهم رواياته "زينب".

(1) عبد الغني مصطفى: الاتجاه القومي في الرواية، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1992، ص32.

قصة زينب لا ترجع فحسب إلى أنها أوّل القصص في أدبنا الحديث، با إنّها لا تزال إلى اليوم أفضل القصص في وصف الريف وصفا مستوعبا شاملا"[1]، ويبدو لي أن وصف الطبيعة مرّده إلى حنين هيكل إلى ريف مصر وهو في فرنسا طالبا جامعيا، وهذا الحنين يعكس ارتباط الروائي بوطنه ولذلك قد تكون شخصية البطلة زينب هي مصر ذاتها، وكذا تأثر الكاتب كما قلت سابقا بالكتابة الرومانسية، التي تتشبث بالطبيعة في جمالها وجلالها وكذا وصف العواطف الرومانتيكية التي تفيض حبا وشوقا وأسى وتكون نهايتها دائما

مأساوية. يقول هيكل في مقطع من روايته: "إذا ساقك الحظ أيّام الصيف وخرجت في ليل غاب بدره، وتألقّت نجومه فخففت من سواد الليل وان لم تقدر على تبديد ظلمته، أو كنت أسعد حظا واتّخذك القمر رفيقا فأدلجت بين المسطوحات الزراعية الكبيرة، لم يكن لك بعد نقطة معينة إلّا أن تسير في طريق لا تعرف سببا لسيرك فيه"[2].

المهم أنّ رواية زينب تمثل بداية الرواية الفنيّة، حيث تجسّدت فيها القواعد الفنية بمفهومها الغربي، مع استحياء مادتها وموضوعها من الواقع المحلّي والوطني والقومي الذي دشّنت حقبة جديدة في تطور الرواية العربية، وعلى الرّغم من ثوبها الرومانسي المفرط والمزالق الفنية التي تضمنتها، إلّا أنّها تشكل خطوة حقيقية نحو الرواية بمفهومها الفنّي الحديث، يقول طه بدر: "ولمّا كان جو الرواية في أغلبه حزينا بائسا، فإن وصف الطبيعة

في رواية هيكل لا يتلاءم مع الطابع العام لروايته ولا يمهّد الجوّ لشخصياته وأحداثه، بل إنّه على العكس يبدو متنافرا مع جوّ الرواية وأحداثها، حتّى أنّه ليبدو أشبه بديكور بهيج لمسرحية محزنة"[3].

لقد استطاع هيكل بمتخيله الروائي أن يبدع نصّا تأسيسيا رغم بعض الأراء النقدية الموجهة للرواية، كما استطاع من خلال اللّغة العامية التي وظفها في حوار الشخصيات فيما بينها، من أجل تحقيق البعد الواقعي وانطاق الأشخاص بلغة تلائمهم وتحدّد أبعادهم خصوصا وأن أكثرهم من الفلّاحين.

---

[1] يحى حقي: فجر القصص المصرية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1987، ص48. [2] محمد حسين هيكل: رواية زينب، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر، 2112، ص18 و19.

[3] عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (1871-1938)، دار المعارف، مصر، الطبعة الرابعة، 1983، ص327.

غير أنّ بعض النقّاد يعتبرون توفيق الحكيم الرّائد الحقيقي للرواية الفنيّة لأنّه أرسى قواعد هذه الرواية وطوّعها للواقع المصري المحلي وحاجيات المجتمع والمرحلة التاريخية التي يمرّ بها وذلك في أعماله الرائدة التي نذكر منها: عودة الروح" و"عصفور من الشرق" و"يوميات نائب في الأرياف" وكان لتمكن الحكيم من فن المسرح دوره الكبير في رواياته التي تميّزت بالدقّة وحرارة الحوار وتدفقه، وفي فترة ما بين الحربين العالميتين ظهرت حركة نشيطة في التأليف والإبداع حيث جرّب العديد من الأدباء قرائحهم وملكتهم الإبداعية في هذا الفن ونذكر منهم طه حسين وعبد القادر المازني والعقاد ومارون عبّود، وبالنسبة لما كتبه الأول في رواية "الأيّام" فقد عدّها النقاد رواية تارة وسيرة ذاتية تارة أخرى ويبدو لي أنّها إلى السيرة الذاتية أقرب، غير أنّ براعة الكاتب جمعت بين سيرة الصبي في صباه وتصوير انفعالاته وأحاسيسه وعلاقاته بطريقة فنية لعب فيها الخيال الروائي دوره وبين البراعة الفنية التي تميّز أسلوب طه حسين خاصة في سمة التصوير المتتابع التي يتصف بها معجمه اللّغوي ومنهج الكتابة عنده.

واذا كان طه حسين والعقاد والمازني، قد تحولوا إلى الكتابة في أجناس أدبية أخرى،فإنّ هناك علما آخر وروائيا كبيرا أسهم بإبداعاته في بناء صرح الرواية العربية الحديث والمعاصرة، إنّه نجيب محفوظ(*) الذي تحمّل أعباء المرحلة الجديدة في تاريخ الرواية المصرية منذ منتصف الثلاثينات مستكملا ملامح وجهها الواقعي في تعبيره الأصيل عن المستوى الحضاري الذي بلغه المجتمع المصري حينذاك ومحاولة صياغة وجهها الحديث المعبّر عن تناقضات المرحلة الدرامية التي وصلت إليها الحضارة العربية.

لقد اختار نجيب محفوظ منذ البداية الطريق الصّعب فهو لم ينقل إطارا روائيا جاهزا، ولم يطبق مذهبا فكريا بعينه، وانّما حاول أن يكشف الصيغة الجمالية الصحيحة باختيار شتّى الأطر الفنيّة والمذاهب الفكرية في أرض الواقع المصري فالاتجاه التاريخي الذي نطالعه في مرحلته الأولى، كان مشاركة رائدة في حركة الأدب الرومانسي والاتجاه الواقعي في المرحلة الوسطى كان ارتيادا إيجابيا لحركة الأدب الاجتماعي.

(*) نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباش، روائي وكاتب مصري، يعدّ أول أديب عربي حائز على جائزة نوبل، ولد عام 1911، التحق بالكتاب وتعلم القراءة والكتابة ثم درس في التعليم العام، التحق بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول 1931 وحصل على الليسانس في الفلسفة وشرع في التحضير لأطروحة الماجيستير، له زخم كبير من الروايات كانت في بدايتها تاريخية ثم تحولت إلى الروايات الاجتماعية ذات الأبعاد الإيديولوجية، توفي عام 2116.

كانت المرحلة الأولى من التجربة الروائية عند نجيب محفوظ، ذات اتّجاه تاريخي يمكن تسميته بالمرحلة الفرعونية التي أنجبت ثلاث روايات وهي: "عبث الأقدار" التي صدرت سنة 1934، إذ تدور أحداثها حول نبوءة ساحر عجوز تنبأ لـ خوفو بأن يجلس على العرش أحد من ذريته بمن في ذلك ولي عهده وأنّ من يتولى عرش مصر بعده طفل حديث عهد الوجود، هو ابن الكاهن الأكبر لمعبد أمون، ويبدأ تصاعد الأحداث في تحدي خوفو لهذه النبوءة ومحاولة قتل الطفل، لكنّ الأقدار تنتصر عليه فلا يموت الطفل، بل يصل إلى أعلى المراتب ويوليه خوفو بنفسه عرش مصر. الرواية الثانية عنوانها "رادوبيس" صدرت عام 1939 تقدم صورة الحاكم العابث الذي يلقي جزاء عبثه واستبداده بسهام شعبه. أما الرواية الثالثة فهي "كفاح طيبة" صدرت عام 1944 وفيها تقابلنا الروح المصرية القويّة التي تمجّد الشعب المصري واستبساله وعدم قبوله الذل والخنوع لذلك نقول: "إنّ مستهمة نجيب محفوظ في بناء الرواية العربية الجديدة والمتميزة لا يماثله أيّ جهد آخر، فيعد تمارينه الأولى، وكانت حول تاريخ مصر القديمة، اكتشف المنجم الحقيقي: الحي الشعبي والحياة الشعبية وظلّ ملازما لهذا المناخ مع تنويع غني وتجديد مستمر، وبذلك وضع الأسس الحقيقية للرواية العربية"(1).

وما يلاحظ على هذه التجارب أن نجيب محفوظ اعتمد على تيار الوعي القائم على القراءة المتأنية والعميقة للأحداث التاريخية، ثم صياغتها في شكل يتماشى مع أحداث العصر.

والخلاصة: لقد كان لهؤلاء الرواد الذين سبق ذكرهم دور كبير في تعبيد الطريق لجيل ما بعد الحرب العالمية الثانية، ليصبحوا أكثر إحساسا بالواقع وكان هذا الإحساس عاطفيا ورومانسيا في بدايته، إذ مهّد لظهور الرواية التاريخية وبالتالي نعود إلى ما قلناه في بداية هذه المحاضرة، وأنّ تطور الرواية في العصر الحديث قد نتبعناه بتطور أغراضه التي جاءت تاريخية ثم اجتماعية ثم عادت إلى التاريخ وانتهت إلى العودة إلى الواقعية بأنواعها.

(1) محمد منيف عبد الرحمان: الكاتب والمنفى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والمركز الثقافي للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2111، ص41.